



رواية السقوط السياسي والإحباط

بقلم محمد الجزائري

وزهرت بقوة (ص ٩٠) .

وامام السقطه ووف عبدالرحمن مجيد الربيعي ليدن هدا السقوط السياسي ، وذلك بتعريفه حد الشتائم ، حد اللعنة ، حد الخواء : (في السياسة اردت ذلك ولكن تسافطهم الدليل امامي جعلني ابصق كبرياء ، واحتفر لحظاتي التي عشتها معهم باندفاع اصييل . جسدي ممدد الان في هذا المعتقل المحتشد مع هؤلاء الرجال الذين لا يتجانسون مطلقا في ثورتهم وشجاراتهم اليومية النافهة ، ولست ادري كيف انصوا تحت يافطة سياسية واحدة !) (ص ١٦-١٧) ربما يضع الربيعي مسألة « الكم » - ومنها الناصري كنموذج - مقابل « النوع » في العمل السياسي (وهذا خطأ) اذ ان الكم يحتوي على العناصر التي تسقط منذ الهزة الاولى - كالناصرية مثلا وهذا لا يعني قطعا ، ان الحركات السياسية مليئة بهذه النماذج المنخادلة بل العكس هو الصحيح .. ولكن مثل هذه النماذج غير المتكاملة النضج والتجربة والتربية الثورية سببت الكثير من الهموم للحركات السياسية في العراق . وقد حمل الربيعي ثقل عبساره المسيح وفذفها بوجه جيله المعاصر : « من منكم بلا خطيئة .. » ولكن اية حجارة رماها الربيعي في الماء المتخثر . في الدم المتخثر ، فسي الحزن المتخثر ؟ وهذا هو السؤال (ايضا) !

ولكي لا يكون لثمالة الحزن والذل والتعري ، وتعرية الواقع العسفي والانهار السياسي ، عفويا ، معناه الايجابي .. فعل الربيعي تلك الفعل ، ان انجز « الوشم » . وعنوان الرواية مستل من مقطع ورد في صفحة ٢٦ . عبر محاولة الربيعي الخلاص في الجنس : (وعلى عنقها قافلة من الوشم .. كاشفة عن فخذين مطرزين بالوشم ايضا هما سلاح الاغراء لديها ..) (ص ٣٦) .

ازاء هذا « الوشم » المهر ، والعار المتصق بالمهر ، احس الربيعي بالفثيان . فهل يعني « الوشم » كعنوان ، حالسة الفثيان التي اتته - اي البطل ومن ثم المؤلف - من عهر وعري ايامه المذلة ، كالبغي التي حاول ان يضاجع ؟ هذه الايام التي استبيح فيها واستلب ؟ .

اظن : نعم ! وهنا يكمن عنصر الايجاب في رفض السلب بالشخصية وبالاحداث وبالواقع وبالتصور ..

اذن « فالوشم ليست تجربة ذاتية ، بل وتجربة العديد من الذين حاولوا تغطية عربهم بالنقوش ، بالوشم ، او بالانزواء والصمت ، او بالخوف من مواجهة الشمس ، او بمحاولة العودة الى النبع ،

ويهطل الكابوس . الخوف من الخوف ذاته . الخوف مسن السقطه .. هذه المعاناة التي لونت اعماق جيل كامل من الشباب ، ليس الشباب حسب ، بل والرجال الرجال ، الخوف من الموت في الحياة ، هذا التعري الكامن الذي بزغ فجأة « كشمس وكصيحة » ، اعارنا عارنا ، واعارنا الاقنعة لكي نواجه ، ونخاف المواجهة في ذات الوقت .

هذا الغائض الزاخر بالالم ، بالحزن ، بالحشرات .. كان فائض فكر لم يتكامل نضجه في المراس ، وفي التجربة . بل كان امام الموت شيئا اخر ، اما البطولة الخارقة حد التجاوز والانتجاز ، واما السقوط التفاوت الدرجات حد التخلي ، او التشبث ببفايا البقايا ولكن بياس متجذر ..

« ان تكون او لا تكون » امام حد المفصلة ، امام العسف والتعذيب واجهاض كل آدمية الانسان او انسانية الكائن .. ذلك هو السؤال الذي واجه الشباب من ادباء العراق - بخاصة - بعد نكسة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

كان الزمن الخائب هو المدار . وكانت السقطه هي المحور . وكان « كريم الناصري » هو الموضع الذي يشرح جسد هذا الجيل ، عبر معاناته .. وكانت « الوشم » رغم صغر حجمها (٩٢ صفحة بالقطع المتوسط) قصة - طويلة ، او رواية قصيرة (- كما اصطلح وشاهدا وادانه لنموذج المثقف البورجوازي الصغير (١) انذي انخرط - ولم يحمل الايمان الصادق - في صفوف الحركة الوطنية فانتسب الى الحزب - ربما مع الموجة وبحكم « المودة » - ثم ازاء العسف - اول تجربة عسف - سقط ،

(واخذت اخطف نارة ، واكتب نارة اخرى ، وكسرت ربابا جديدة وامعنت في كسر رباب اخرى . ثم القيت بالورقة والقلم

(١) نجد الكثير من التبريرات للسقطه في « الوشم » منها ماجاء في ص ٢٢ : « اعتقد ان اندفاعنا بدا من هنا ، من وعينا الطبقي للمسألة . ان جهد والدي كان لا يساوي ربع الدينار في اليوم ، يحترث الارض ويشق الترع ، ويحرس في الليل ، ويبرد ويجوع ويعرض .. » الخ وهذا الجدر ، يتطلب موقفا اكثر وعيا من الاشياء واكثر صلابة . لكن الروح البورجوازية الصفيصرة جعلت الموظف السابق كريم الناصري ينشق عن طبقتة ، كابن لكادح فيما مضى ، فيحمل ذهنية وسلوك البني بورجوا المثقفة وهذا ينسحب على مجمل مواقف السياسية من بعد .

أخرى ومناهات أخرى ، ومعاناة هذا الجيل الذي نما وعيه بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، والذي أجهضت احلامه وتطلعاته بفعل تلك الصراعات التي عاشتها القوى السياسية في العراق حد التصفيات الجسدية او الازلال .. نتاج هذا الماضي الذي يسحق بقوة وعنف كرامات الناس وحبهم وطموحهم ، ويسحق بشكل مأساوي وسادي كل محاولات العودة الى النبع ، والذي يشكل الكابوس في كتابات كثير من الشباب ، وجد انعطافه في « الوشم » :

(تناهي الى اسماعنا صوت محرك سيارة توقفه عند باب المعتقل ، وتجمع المعتقلون حول الشبابيك ليتطلعوا اليها ، فقد كان اللعسر يسكر في القلوب منذ ان بدأت التحقيقات ، وكنا لا نعرف من الذي سيكون له الدور في المرة القادمة ..) (الوشم ص ٧٢)

و ...

(- انهم يقتلونهم)

(- يدفنونهم احياء)

(- ينقلون الى الصحراء) (الوشم ص ٦٦)

نعم .. ماذا اعطت هذه الرواية - القصيرة ، غير الادانسة للسقوط السياسي ، عبر تبصيح هذا السقوط ومناخاته ونمادجه ونتائج واجوانه اللاحقة الهروبية ؟

انها اعطت الصديق . فقد كان الربيبي صادقا في التعبير عن هذه التجربة ، وهو لا يكرس للسقوط - لاننا لا نحترم كريم الناصري ولا نتعاطف معه في النهاية ، بل نتعاطف مع رياض قاسم ، رغم ان المؤلف لم يمنح هذه الشخصية الانارة الكافية ..

صحيح ان عبد الرحمن الربيبي حافظ على صدق الوقائع - الى حد كبير - لكنه اسقط نموذجه (كريم الناصري) بالاناس الضخمة ، والترجسية حد السوداوية والهروب . اما النماذج الاخرى فقد شجبت وكادت ان تختنق في دائرة كريم الناصري : (علوان الحلاق ، مجيد عمران ، حسون السلطان ، جابر الوصلي ، محمود ، رياض قاسم ، حامد الشعلان ، محسن خليل ، الشيخ ، مريم عبدالله ، اسيل عمران يسرى توفيق ، وشهرزاد الراقصة ، الى جانب شخصيات سرعان ما تظهر وتنتفيء في نفس الصفحة ان لم ابالغ : في نفس السطسور كشخصية عامر صبري مثلا في ص ٦٣ ..)

واذا كان الواقع او المجتمع وخاصة مجتمع السجن ، قد غص بعناصر فقدت كل اركان انتماءاتها .. وفقدت ، من ثم ، كل شيء .. وهي اكثر حدة وانهيابا وتعرضا للصف من نموذج « كريم الناصري » وان كانت حياة السجن شاقا حد العراك لاتفه الاسباب - احيانا - وحد القذف والشتائم والتخلي عن كل السياسة والسياسيين ، والقوى والنظريات من قبل العناصر المنهارة .. لكن هذا لا يعطينا صورة صادقة لشريحة تمثلها صيغة « كريم الناصري » ، صيغة لما تزل تتنفس ولكن من خاصرتها ، وتحاول خلق توطؤها الخاص مع الطرف الجديد (ص ٦٢ ، ٧٣ ، ٨٧) لكن كريم الناصري ليس « رجل الاستثناءات » - هنا - ، انه يذهب ويجيء وسط واقع عار ، انه ليس « غربا » على الواقع - شكليا - لان الواقع مليء بامثاله ، عبر ذلك المد الخشن والجراح الذي تدفق فيه الدم وغاص الحياء . عبر ذلك الصراع الحاد ، الدموي بين اليمين واليسار .. انه وحيد ، هذا صحيح ، ومستلب ، ومفترب ايضا ، لانه لا يرى - الا - كثافة الشمس وعلوئها ، كما كان يراها وهو وسط زحمة النضال اليومي والعمل السياسي ، لا يحس الاشياء نقية لانه خسر النقاء الثوري الذي كان في سبيله الى الوصول اليه - عبر التنظيم والتجربة والمراس - .. انه لا يرى وجوه اصدقائه كما هي ، لانها تغيرت عبر منظوره الجديد المتخلل ، او انه تغير في الواقع :

(تنفس كريم الناصري هواء الشارع بعد اختناق عريض . سبعة شهور جائزة طوقته بدفانقتها ورعبها ، وهرست منه الدم والعظم والاعصاب .

ولكن ظل ذلك الذي كان في الداخل « قويا » ، منهارا وخائسرا ومنخورا . من هنا يسير هؤلاء « الفرغون » اشباه كريم الناصري ، حسون السلطان (الذي صار الحاج حسون ..) ، حامد الشعلان ، محسن خليل .. الخ . الفرغون بسبب العسف وعبر ادواته ، من ذلك الذي كانوا يمتلكون (الايمان ، الانتماء ، التنظيم ، الفكر .. والاخلاقية ايضا ..) ، وهم يحاولون ان يجنوا بعض وجوههم في « الوشم » . اذ كانت هذه الرواية القصيرة غرفة مرايا تعكس الذاتي بالذي يمكن ان يكون (او يشكل) الظاهرة ، والذي تكون مع الانتكاسة ، ومع ردود الفعل ، ومع حد السكين ، ظاهرة التخلي رغبة او خوفا او عسفا ، اي برغبة ذاتية خوفا من العسف ، او بفعل العسف نفسه ، لانه قطع العديد من اصحاب الانتماء عن انتماءاتهم ، - ولو تنظيميا على الاقل - ونسف ما في دواخلهم ..

هؤلاء الذين يشكلون الظاهرة يتحركون بيننا . كلنا عايننا سليات العسف . سليات الظاهرة التي هي الماضي يتحرك ويمشي على اقدم الزمن المنهار في الزمن الحاضر ، وان كان هذا المشي على ارسفة الحياة احيانا ، وعلى صفاف الانتهازية احيانا اخرى ، او في محاولة تاتيبي الضمير او التطهر ، او التشبث مجددا بالجذور .. هذا الواقع هو الذي يعيشه اكثر من كريم ناصري ، حتى الان ..

وهذا الماضي الداخل في الحاضر لا زال بلاحق الكثيرين ، لا زال شهر قيمص السقوط السياسي يعذب هذا ، ويؤنب ذاك ، ويتدخل في حياة وتطلعات وطموحات اناس اشتغلوا بالسياسة وعاشوا التجربة المريرة .

اذن ، فالوشم بدء ، ادانة لكل ادوات وجهات العسف التسي تقطع الانسان عن انتمائه وتسقطه في الذل والخيبة . وعبر هذا المنظور يكمن شرف طرحها في هذا الطرف ، اذ تشكل الرواية خلاصة معاناة الربيبي عبر مجاميع القصص (٢) معاناته في الجنس كتعويض عن السياسة : (ان اهم ما يشغلني الان هو : هل بالامكان ان تكون المرأة تعويضا كاملا عن الخيبة السياسية ؟) (الوشم ص ١٦) .. ثم في الهروب من (المكان) كتعويض اخر :

(قلما تازمت الامور وتعقدت نهرب منها بحثا عن بدايات جديدة ، هربت من الناصرية الى بغداد وسأهرب من بغداد الى الكويت ، وربما من هناك الى ابي ظبي او انقرة ، ساكون مطاردا على الدوام) (الوشم ص ٨٦)

وفي هذه الترجسية التي تتجسد لدى كريم الناصري الذي يبحث عن التعويض في كل جزئيات حياته وحياة المحيطين به : (- اما انا فقد رأيتك مرارا وعرفتك .. كريم الناصري ! ليس كذلك ؟ نا له مسن اسم كبير رأيت في الصحف والجلات عشرات المرات .

وشمرت بالزهو من هذا الدبح السافن ..) (الوشم ص ١٤) هذا الهدم الكبير ، هذه الهوة التي لا زالت تهطل بثقلها على العلاقات السياسية والاجتماعية والادبية بشكل حاد في العراق ، لا بد من الذي يصورها ، ولا بد من التعبير عنها .

انها وجه القضية في مرانا « الوشم » ، تجسدت في قصص

(٢) صدرت للربيبي عبد الرحمن مجيد : « السيف والسفينسة » (قصص - بغداد ١٩٦٦) . « الظل في الرأس » (قصص - بيروت ١٩٦٨) ، « وجوه من رحلة النعب » (قصص - بغداد ١٩٦٩) و « المواسم الاخرى » (قصص - بيروت ١٩٧٠) وله ايضا قصة - طويلة : « عيون في العلم » نشرت في مجلة الاقلام العراقية العدد ٩ / ١٩٧٢ تشكل القسم الاول من ثلاثية - تاسى الوشم قسمها الثاني - وقد انجز الرواية الثالثة - او القسم الثالث من هذه الثلاثية - وهو معد للطبع .

- سابقى هنا . ان حزينا يعيد تجمعه من جديد ولن اتخلى عنه ابدا .
- كل الذي اتمناه يا جابر ان تعودوا ثانية وربما اعود بعوذكم فانتم التفاؤل الذي اضعضناه (ص ٨٧)

اذن .. فهذا البحث ، وهذا الحنين ، يتجسدان عبر الصراع مع الذات ، وتثوير « التجربة » في « الذاكرة » و « التداعي » ، وبين الزمن الماضي والحاضر والمستقبل يظل « الوشم » - كرمز للسقوط - لصيفا بالناصرى ، اذ انه الماضي الذي لا يمكن ان يشطب عليه ، الماضي الذي يدين الاندحار في داخل البطل .

ففي « الوشم » هذه الحدود المفلقة لمعاطفة هشما الزمن والهيا في ذات الوقت ، ولانتماء عمقه الزمن واضاعه الصنف في ذات الوقت، ولحيوات لم تكتمل ملامحها باستفاضة ، ولطموحات احبطت ، وبعضها لم تسقط في الاحباط التام . وعبر ديالوج وتركيب صوتي وزماني متمازج ، يخوض الربيبي تجربة التخلص من « الشكلية » لينساب داخل تجربة الوجود ، بهذا الالتصاق الحار بالاشياء ، الاخرى والجسد العذب في الحياة ، المحنة ، الانتماء المقطوع ، الخيبة ، الحب القلق ، والحب المحرم ، التردد ، ثم الهروب . والخلاص في الهروب .

وعبر ذلك تبقى اهتزازات البطل عنيفة ومتوترة رغم عوامل الكبت ووجودية الانغمار بالاشياء حد الاستلاب والفربة !

★ ★ ★

وعبر التدايعات ، وعبر الازمنة المتداخلة ، وعبر اللهات نحو الخلاص ، يختنق كريم الناصري ، ويسعى لتحقيق ذاته ، ولكن عبر كل تراكمات ماضيه (الابيض ، الاسود) عبر تضاد اللونين ، وعبر كل الاشياء المتناثرة امامه بشحوب ، انه الموت يمود ليتحرك في حياة لا تزال تحمل سكينها وتهدد الاحياء .

« ويبدو - يقول جان ساروكي - هنا ان اقامة تطابق دقيق بين رواية وحياة ما ، اقل فائدة من رسم تخطيط تكون ادبي » (٣)

لذا فاننا - تجاوزا على مفردات الحياة اليومية للمؤلف ، واستفادة منها في ذات الوقت - سنكون تخطيطنا الادبي عن الرواية ، ليس بمعزل عن شروط تفتحها وانتعاشها ، بل وصيرورتها ، حسب ، بل ومع - وبالتفاعل مع - هذه الشروط (المادية - الموضوعية) التي احاطت « بالزمان » و « المكان » و « بالبطل » والشخصيات الاخرى . ولنبدأ بالنساء :

ففساء « الوشم » : « مريم عبدالله » و « اسيل عسمران » و « يسرى توفيق » والراقصة « شهرزاد » هن - ما عدا « يسرى » التي تشكل النقاء والعذرية والرمز للتوحد مع التطلع الشروع والبديل الاروع - يعشن احساسهن بالفربة والاستلاب (داخل البيت ، العمل ، المجتمع ، العلاقات ..) ، ففساء « الوشم » يمكن « تحقيق هويتهم » ويمكن العكس تماما . وربما كان من الصنف ان نقول ان « مريم » هي فلاتة الحاضرة بوعيتها وكثافتها ، في حياتنا اليومية ، وان « اسيل » هي المرأة الغلاية ذات الاسم كذا والعنوان كذا - على الطبيعة - ، وان « يسرى » هي الاخرى ذات حضور معاشي واجتماعي ويومي محدد ..

لماذا ؟ لان كريم الناصري - ذاته - لم تتوفر فيه هذه التكونات البيئية بشكل مقنن - موضوعيا - بل قد يكون هو المؤلف مضافا اليه صفات المثقف البورجوازي الصغير ، النرجسي حد التضخم (شخصانيا) اما رواتيا ، فكريم الناصري - كذلك الشخصيات الاخرى - يعيش - او يعيشون - حالة الانطفاء ، ولا يتحركون بعق روائي مطلوب يكثف

(٣) جان ساروكي في مقدمة رواية « الموت السعيد » لالبيركامسو بعنوان « تكون الموت السعيد » - الموت السعيد - منشورات دار الاداب - بيروت - ترجمة عابده مطرجي ادريس .

خرج كريم الناصري سالما ، طويلا ومينسما . يتفقد الاصدقاء ، ويرد التحية على الاخرين ويستقبل تهنتهم بمناسبة اطلاق السراح .. ولكن في داخله كان هناك شيء قد نسف ، وهذا الاطار الاعتيادي الوقور ما هو الا قناع لاختفاء البقايا وتغطية التدمير الذي لا يرمم . وعندما يستعرض اشياء هذه المدينة ، اناسها ، ابنتها ، ازقتها ، مفاهيها ، لا يجد تلك الحرارة الاولى التي كانت تشده اليها ، فتلفحه حمسى الافتراب ويدعوه صوت من الاعماق لان يحمل رفاقه ويقلع لعل راسه اللاتب تحتفنه وسادة امان ..

وعندما وضع جسده في القطار الصاعد الى بغداد قال له حسون السلطان :

- اتمنى ان تصحو يا كريم وان تعود الينا باقرب وقت .

- ولماذا اعود : كيف نطق اظهار وجوهنا الصفيقة للناس (الوشم ص ٧) كريم الناصري - اذن - يقف وحيدا ومتخاذلا امام الحقيقة التي طرحها « هنري باربوس » :

« انثي وحيد ، واريد ما ليس عندي، وما لم يعد عندي » (باربوس رواية « الجحيم » منشورات دار الاداب) حبه لاسيل عمران ، ولريم عبدالله ، من ثم ليسرى توفيق . هذا الحب الذي احبط في كسل الاحوال . يحتاج - به - كريم الناصري الى عالم جديد ، جديد .. فلقد خسر في ماضيه الروعة والاندهاش ، ويعاوده الحنين الى البديل ولكن هل « بهذه الحاجة » - اي الجنس والبديل - يعيش كريم الناصري « ومنها يموت » ؟ .. وهل كريم الناصري هو وجه عملسة المعاناة في الواقع السياسي وبسببه ، ام ان هناك اكثر من نموذج في القصة المراقية الطويلة ، او الرواية القصيرة المعاصرة ؟! في « كانت السماء زرقاء » يمنحنا الروائي الشاب اسماعيل فهد اسماعيل نموذج الانسان العبشي الراض الذي تحاصره قوى الصنف فيهرب .. ومن قبله كان شاكرا جابر في روايته « الايام المضيئة » و « الهارب » ، قسد اعطانا ملامح متشابهة ، واخر ما اطل علينا به خضير عبد الامير في روايته « ليس ثمة امل لكلكامش » ، وهي وجه اخر للنموذج الباحث عن البديل والمحاوّل تجاوز حالة اليأس والاحباط .

ولكن عند عبد الرحمن الربيبي يشكل البطل كريم الناصري شرعية معاناة للسقوط السياسي ، بشكل واضح ، غير مرموز ، ولا مضب . وهذا يعني ليس التكريس للسقوط بل ادانته .. اذ ان الروائي اسقط الناصري في كونه لم يتبته ، بل ادانته . وقد استفاد الربيبي من تجارب روائية عالية - منها على سبيل المثال « الدون الهادي » لميخائيل شولوخوف - اذ ان بطل شولوخوف « كريكوري ميخايلوف » نموذج معاد للثورة ، لكنه اسقطه ، اذ بقي كذلك في حين نجحت الثورة .

ان اسقاط البطل في النهاية السلبية يعني الانتصار على سلبيته من قبل الروائي والملتقي ، يعني حرمانه من حق التمتع بامتيازاته الالتزامية وبالحصانة الثورية ، وهذه المسألة تحتاج الى اضاءة في نقدنا المعاصر ، بسبب سوء الفهم الذي تجابه به مثل هذه الاعمال والتي يفسر - ضيق الافق - نشرها بانها موقف ضد هذه الجهة السياسية او تلك .

و « الوشم » - بهذا الاعتبار - تشكل معنة الفنان ازاء انتمائه السابق ، فهو يبحث - كما قلنا - عن انتماء بديل او في العودة الى التفاؤل الاكثر شمولية :

(- ان للملاقات الانسانية الطيبة انتماءها الاكبر

- اذن لماذا اخذت الامور ذلك المجرى ؟

- نحن الان جميعا تحت وطاة نقل واحد ، والواجب يدعوننا لان نتظهر من احقادنا الدفينة حتى لا نظل صيدا سهلا بيد الرجعية الى الابد !) (الوشم ص ٦٢) و ...
(اجاب جابر :

- كما اسلفنا القول -

فاذا كانت « المعاناة هي حياة .. » وإذا كانت « السعادة هي صبر طويل » ، فإن السعادة الحقيقية ، تتحقق - بالنسبة للمنتهين الى جبهة النضال الثوري - في النضال . اما المعاناة فهي في الخنوع ..

من هنا ، فإن « الانهزام » او الرضوخ للمصنف ، او « الخنوع » هو مرادف « المعاناة » في « الوشم » . من هنا فإن عملية البحث عن البديل تأتي جزءا - حارا وحيويا ايضا - من موضوعات الواقع والمجتمع والحياة اليومية . وهي - مبررة - ان توفرت النوايا الحسنة لدى كريم الناصري والشخوص الأخرى ، الذين يتحسسون سقوطهم السياسي في كل خطوة وفي كل لحظة .

اذن فهل كان « زمن » الناصري ، « ضياعا » في (المكان) الساكن: السجن . العمل . الوطن ؟ ام انه توحد في ضياع جيل كامل خسر بعض طموحاته ؟

« وإذا كان الزمن قابلا تصب فيه الاحداث في الرواية (البلازكية) والرواية (الفلوبيرية) فانه نسبي في الرواية الحديثة ، عند جويس وكافكا وفوكتر وغيرهم ، اما في الرواية الجديدة فالامر يختلف تماما ، وحين يحاول الان - روب - جريه ، ان يقول في رواياته ان لكل انسان زمنه الخاص ، وانه لم يعد هناك ، وجود لتلك العلاقة الكاذبة بيننا وبين العالم (علاقة الامتلاك والسيطرة في القرن التاسع عشر ، وعلاقة العبث في القرن العشرين) وان البطل الحقيقي في الرواية الجديدة هو « المكان » .. « (٤) » فان (الوشم) كتسبب المكانية والزمانية وتدخل في تجربة العبث في ذات الوقت. اي انها استغاثت من تجارب الرواية الواقعية ، والحديثة ، والجديدة .. وقد حقق الربيعي لبطلة تلك العلاقة الواضحة بزمنه الخاص ، وتلك العلاقة الواضحة بيننا وبين العالم الذي يحيط بنا .. فاذا كان « كريم الناصري » قد قام بأعمال - في زمن ماض - لم يؤمن بها كالمصق المناشير - مثلا - فهو حتى هنا ، قد تخلى عن هذه الاشياء - الذكرى في زمنه الجديد - بمعنى ان « التخلي » سياسيا و (الامتداد) زمنيا ، متداخلا في (الوشم) . اي ان الرواية واقعية تركيبية (اقبول تركيبية لانها مركبة من واقعية وواقعية حديثة ، وواقعية نقدية .. في ازمته وتداعيات متداخلة) وقد جاءت لتبر عن حس الفنان بضرورة العودة الى الواقع منهجا ومناخ عمل ، والى التصور ، كإضافة فنية تفني الشكل ، فبعد ان طلق الربيعي « التجريبية » في العمل القصصي لا بد ان تستويه لفة « الشكل » لا (الشكلية) .. من هنا (فالوشم) رواية واقعية متشكلة ، او تشكلت في الواقع عبر بنية تركيبية ، فهي ذات نفس رافض - رغم عتمة الاجواء - فالرفض هنا نوع من الظهور ، من الخروج عن السلب والانهزام بعد « التخلي » ومحاولة للعودة الى (الامتداد) او هي الامتداد ، ولكن بحنو فضوب وبقيض من السخط والمحبة اديا الى الضياع ومحاولة الهرب (٥) .

وبطل « الوشم » كما في سيزيف ، يحمل الصخرة ، كمن يحمل هموم عاره والدنيا كلها والعمر ، فيظل مشنوقا في مفترق الطرق ، وهو ينظر بعينين لاهتتين الى المستقبل (زمنيا) ، والى خارج الحدود (مكانيا) ، لكنه بعد ان فقد حاسة الابصار « المنظم » المنتمي ..

(٤) نحو رواية جديدة : ان روب جريه ، ترجمة مصطفى ابراهيم ماهر - دار المعارف بمصر .

(٥) في بحث سابق تناولت « الامتداد » و (التخلي) في الشعر العراقي بين عام ١٩٦٠ - ١٩٧٠ تطبيقا لجوانب هذا الاحباط السياسي في الشعر . (مجلة الكلمة - العدد الثالث الخاص بالشعر العراقي الحديث) .

ابعادهم وتحركاتهم كما يجب . ففي « الوشم » لم اجد الانارة ، بل وجدت الانطفاء ، في النماذج .. وهذه الحالة تشكل التصوير الصادق لبعض جزئيات الواقع ، عانى منها العراقي ، وهي « اضاءة » - في ذات الوقت - لهذه النكسة التي مر بها الانسان والثورة في مقطع زمني معين ، وهي « اضاءة » ايضا لذلك السقوط والاحباط الحادين ..

ان اول تنويه يمكن تشييته ، هنا ، هو ان اهتمام المؤلف انصب على « التصورات » اكثر مما انصب على « الوقائع » ، بمعنى انه وضع صياغته التصويرية لشخصياته وادانهم ، او اوجدهم معه ، متواطئين بالحب او بالرفض ، لا لانهم كانوا كذلك - فعلا - ومن جميع الوجوه ، بل لانه اضاف تصوره الخاص عنهم الى جانب ما كانوا ، او الى جانب بعض ما كانوا - على وجه الدقة - .. وهذا « الفصل » الروائي : التصور .. ، سمة ايجابية في عملية الخلق الفني (بخصوص النماذج للوصول الى حالة الاحباط التي عاشتها هذه النماذج ..) المستلثة من الواقع والمضاف اليها تصور الفنان نفسه .

ان حيوات « الوشم » متشابكة الازرع . ولكن باصابع مقطوعة تنزف دما . بمعنى انهم مزروعون على ارض واحدة ، في بستان واحد ، لكنهم مستلبون .. يعيش احدهم في مقابل الآخر ، ولكن بانكفاء ذاتي ، وكانهم سنابل تدور احداها وجهها عن الأخرى ، رغم انها في حقل واحد ، حقل اصيب - توا - بأفة ، فلم تعد الثمار فيه ، ثمارا ! لكن « الوشم » - العار - هنا - والاحباط والسقوط - الذي يلون اعماق هؤلاء - باستثناء رياض فاسم ويسرى ، التطلع والامل والمذرية - كان ادانة وكان قصورا - فنيا - عن الادانة . بمعنى ان تركيب الرواية يتطلب خلقا فنيا اكثر تكاملا واطاعة للشخصيات ، عبر مسار يرفع قبسه الايجابي منذ السطور الاولى وحتى الخاتمة ، كمقابل تكريم الناصري كشخص محبط .

ولا يكفي ان يتم ذلك عبر تعابير معلقة كقذح في الهواء ، اذ ان نموذج كريم الناصري ليس النموذج الامل ، ولا الاوحد .. في تلك المرحلة ، .. فهناك - على الضد تماما - الابطال الذين دافعوا عن انتمائهم وعقيدتهم حد الشهادة .

من ثم .. فاذا اردنا ان نقسم « الوشم » كرواية ازمته ، فهي تخضع لتضادات متوالية هي :
اولا : زمن الحضور الآتي : بعد الخروج من السجن (مكتوبة بالحرف الابيض) .

ثانيا : زمن التوغل في الماضي : التداعيات والاحباط والجسو الكابوسي الراهبي (مكتوبة بالاسود وداخل اقواس)

ثالثا : زمن التوغل في المستقبل : التطلع ومحاولة الخلاص في الهرب (اسود وبيض)

رابعا : زمن التفاصيل اليومية : الحب ، العمل ، الجنس ، المعاناة .. (الابيض) .

وهذه الرباعية الزمنية تتداخل ضمن بنية العمل الفني في شكل ، غير مفرط في فنيته ، وغير مفتعل ، وغير مضمون يدخل في تركيب السؤال التالي :

- هل السياسة تخلق الفرحة ، ام الجنس ، ام العمل ، ام الهرب ؟ . هذا اولا . او - هل الانتماء هو الاساس في الحياة ، اي الحياة هي الانتماء .. بمعنى ان الناصري وغيره ضاعوا حين فقدوا انتماءاتهم ؟! واذا كانت الحواريات تؤكد هذا الضياع ، فان ادانة « اخطاء » الانتماء جاءت تبريرا مفتعلا للسقوط السياسي : (الاعتراف ، والبراءة ..) اي ان التبرير لم يأت صادقا لموضوعة « الايمان بالتنظيم الثوري . اي بالحزب السياسي الطبيعي) . وهذا يقودنا الى استنتاج ان كريم الناصري لم يكن اصيلا في انتمائه ، بمعنى انه كان منتميا ليس بدافع « طبقي » ولا فئاعة ايديولوجية ، ولا ايمان صادقا ..

وهكذا نجد الكاتب يعيد كتابة (الوقائع) مع (التصورات) ، فكيرم الناصري واحد من الجنوبيين « وضع في الحياة » ووجد نفسه يواجه العالم ، انتهى سياسيا ، ثم اوقف لمدة سبعة اشهر ، لم يتحمل العسف ، سقط ، اعترف ، واعطى براءة ، خرج من الحزب والسجن والثورة ، لكنه وجد ارضا ترفض خطاه وعاره ، فراح يبحث عن البديل في اماكن اخرى ، يحلم بها : السفر . لكنه « كم كان غريبا عن حياته » وكان الاشياء ليست اكثر من « فهرست للادانة » . لذا كان لا بد له اما ان تكيف مع « الادانة » لذاته ، وافتعال الادانة للاخرين كي يشزع عن جلده لون الماضي او ان يموت ولكن بلا سعادة ولا معنى ، او ان يهرب ويرفض الزواج بهريم عبدالله او يسرى ، بعد ان احبط في السياسة وفي الحب (من اميل عمران ..) لذا كانت المرأة في « الوشم » تنقسم ازمنا الناصري في محاولة لخلق التوازن مع الاشياء والعالم : ففي حين تشكل مريم عبدالله علاقة الزمن الضائع ، العشي ، المسترد والحبط ، تشكل اسيل عمران علاقة الزمن المستلب ، وتشكل يسرى علاقة الزمن الاتي ، المتمنى والذي لم يات ..

فالناصرى يعيش حالات استذكار لهذه الازمنة عبر النساء ، وعبر ذلك تتعمق حالة يأسه : (ولم بعد امام التقاعدين مجال لكسى ستعرضوا اوسمة ماضيهم الصدمة) (ص ٢٠) . « يوم اعطيت راسي للكتب شربت الجبن والتخايل ، ويوم اعطينته للانتماء عرفت الخيانة والهزيمة ، والاجدر بمرتد فاشل مثلي ان يخفي وجهه عن الانظار لا ان يعرضه كضاعة كاسدة » (ص ٤٣) .

(وعلى اية حال ان السفر يمنحني فرصة البدء) (ص ٨) . اما الزواج من مريم ، فانه « نكتة قديمة » (ص ٩٢) يرفضه ويرفضها في الختام .. ان الناصري « حاول ان يستعيد قيمته الضائع » ولكن مع من وابن ؟ . (لقد انتهت المسألة بطريقة باردة وردية) (ص ٨) بالنسبة اليه ..

ففي : (عالم المهرجين والاشباه .. في المدينة التي ما زالت تعلق جراحها وتنزع عن جسدها ثياب الحداد ، تعثرت خطواته في دروب العتمة والنسوب) (ص ٨)

عن هذا العالم ، (الزمان) يحاول الناصري ان يهرب، اما «المدينة» (المكان) فهي لما تزل تعلق جراحها .. اي ان المكان منكوب .. ولما يزل .. وهو بهذا الشعور يعي الخسارة وينفجع بها ، تلك التي ابعده عن انتمائه واستقطته في الاحباط السياسي والاجتماعي :

(انني ادور في طرق لا يعرفني فيها احد ...) (ص ٨) فهو رجل : (خسر وظيفته والتزامه ومدنيته) (ص ٨) .. انه غريب كامو ، ولكن بمعاملة عراقية ، حادة ، لا تعرف الوسط ، معاناة :

(يعرفها ويخدرها بالسكر محاولة لتعميق غيابه حتى النفس الاخير) (ص ٩) ومع ان الناصري يصفى على نفسه هالة من الاعجاب وهي صفة نرجسية للبورجوازي الصغير كما قلت - وكما في لقائه الاول مع اسيل عمران حين يكره ان يكون جزءا من ذكريات انسان :

(- ولماذا ؟)

- لانني اريد ان اكون كل شيء) (ص ١٥) .
لكنه لا يخفي ادانته لسقطته السياسية :

(هناك خير اذفه اليك : لقد عينت محررا في احدى الصحف اضافة الى عملي في الشركة ، ولكنني اكتب باسم مستعار اغيره بين وقت وآخر ، لا اريد ان اظهر اسمي الملطخ الى النور ، انه بحاجة الى فترة تطهير قد تطول او تقصر) (ص ١١٠) .

اذن فإزاء « فترة التطهير » التي لم يجدها الناصري ، وضع الربيبي « نواة نظام » الا وهو الهرب من الماضي والحاضر ، من الزمان والمكان .. ولكنه ظل يدور في اطار شخصياته ، رغم انه منحها خصوصية

ونسف الشيء الذي في داخله ، احس بأنه منحور ، وبان من الصفاقة ان يواجه العالم بعريه وعاره ، من هنا فهو يبحث عن الخلاص في الهرب ، اي في التوغل الى مكانية وزمانية اخريين . ولكن أين يتجه الناصري ؟ اذا هرب من الناصرية الى بغداد - او العكس - فهو سيصطدم بالمكان ، اذ ان الخارطة لا تستقط من حسابها جزءا من الوطن بسهولة ، ولا يمكن للقصة - الرواية ، الا ان تطرح هذه الجدران والمعوقات الجديدة التي تواجه زمكانية البطل وجواز السفر ، والامكانيات الاخرى - مثلا - .

اذن فالخلاص قد يكون الانتحار بالنسبة للمندحر سياسيا ، والذي يستشعر غربته معمقة في كل لحظة ، والذي يجد نفسه محاصرا حتى في السفر .

ولكن هل يجوز ان يقدم انسان العراق على الانتحار بسبب الاحباط السياسي ؟ كما فعل كامو نفسه ، ففي موته حقق خلاصه الوجودي - العشي ؟ .

عند كامو يجوز تحقق هذا الفعل ، لكن عند الربيبي او اي عراقي اخر ، لا يجوز ، بسبب عوامل عدة ، نفسية واجتماعية تتعلق بتركيب وبنية الفرد العراقي ، من ثم المجتمع العراقي وطبيعة تعامله مع اليأس والقنوط ، والاحباطات ..

من هنا يظل البطل يعيش تمزقه في الزمن الحالي ، بسبب الزمن الماضي ويحمل ثقل ذلك العبء الى الزمن الاتي ، ايضا .

« ان الفكر وقد تكيف بالحياة التي يعكس كل احداثها - يقول الان روب جرييه - يكف عن تحصيل عناصر الحياة وجمعها في كل واحد . اننا لا نرى الا الحدث في الحدث ونرفض ان نرى فيه قصة حياة محكوم عليه بالفناء .. ان فكرنا يرفض ان يكون فكر حيانا .. اننا ننظر الى الاشياء وهي تمر امامنا ننسى انها تنظر الينا ونحن نموت » (٦) .

بهذا الاحساس يحاول كيرم الناصري ان يكون ، فاذا كانت محاولة جعل العالم « يشابهنا » قد فهمها البعض بشكل سيء ، فان « الوشم » طرح النقيض ، طرح اننا والعالم نلتحم عبر الاحداث والانكاسات والفكر .. واذا اسقطت القوى المسقية ، ركنا من هذه الركان ، فان الذي في داخل الانسان قد ينفلت ، وهو يفقد خاصة من خاصيات وجوده كمتهم ، اذن تلاشي بقية الخواص ، لا كانسان بل كمتهم ..

ان عبدالرحمن الربيبي حاول ان يخلق بعض التريجعات الفنية التي تمنح شكل « الوشم » مضمونا عبر اللغة ، التداعي ، الوصف المكثف ، الحوار ، وعبر « الكولاج » بالكلمات ، اي المصنعات : قصيدة الشعر الشعبي . كاغنية حزينة (ص ٢٧) ورسالة الحاج حسون السلطان (ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٤) وآيات القرآنية لحامد الشعلان (ص ٧٠ ، ٧٢) .. ليعطي بذلك الدلالات الفنية لآراء الجو العمام للرواية ، وتأتي هذه اللعبة ، مع تداخل الازمنة وتشابك الاصوات والامكنة ، لتعمق استعدادة الذاتي ، كفتان ، لمراقبة العالم والاستفادة من كل التفاصيل لاغناء موضوعه ولكن هل خلق عبدالرحمن الربيبي « نواة نظام » يطالب برفض الوشم ، رفض العار ، والانتماء في ذات الوقت ، كصخرة « فؤاد النكرلي (وهي مسرحية نشرت بمجلة مواقف بهذا العنوان) والتي رفض من خلالها « السياسية » والاحسزاب والتنظيمات ، بالاستنتاج ، وبالتعبية ؟!

عند هذا الحد ندرك ان الربيبي حاول ان يفعل ذلك ، ولكن داخل موجة خلق « البطل » الوسط بين الانتماء والانتماء ، الوسط بين الموت والحياة ، بين البغض والمحبة ، بين اليأس والتفاؤل بين البحث والمغامرة والقنوط ، وباختصار : بين « الامتداد » و« التخلي » .

« عيون في الحلم » التي نوهنا عنها ، القسم الاول ، ومدخلا للثلاثية .. ففي « عيون في الحلم » البطل ايجابي في مرحلة تاريخية ، سبق من مرحلة « الوشم » .. لقد كان البطل متاضلا ، وحتى اقامته القسرية (نقله الى مدرسة في الريف) لم يكن فعلا سلبيا ، وتنتهي « العيون » عند الاعتقال .. ولكن بعد الاعتقال - وهنا تبدأ « الوشم » ، وبعد العسف والسقوط السياسي ، تتغير البنية النفسية ، للبطل فيحس انه خسر مقومات نضاله . وان شيئا قد نسف في داخله .

وبعد .. فثمة ملاحظة اخيرة تتركز في كون « الوشم » ليست رواية ذهنية ، بمعنى ان عبدالرحمن مجيد الربيعي لم يفلسف فيها الاحداث ، ولم يدخل في تهويمات فكرية ونقاشات نظرية متعالية ، كما يحدث في مجمل القصص العراقي الجديد .. بل ظل يأخذ الوقائع وبركها ضمن شكل فني اختزل فيه الكثير من التفاصيل والتفاعلات .

واخيرا .. يمكن القول ان عبدالرحمن مجيد الربيعي وجد نفسه اخيرا ، بمعنى انه استقر على اسلوب فني في التعبير ، الواقعية تشكل مناخه العام والابتعاد عن اصطياد اللفظة والتلاعب بها (كما كان ..) منهجا .. والالفة في معاملة شخصياته حصد الاختزال والتكثيف - والتشحيب - كذلك العوامل المحيطة به ، جوا للعمل القصصي ..

وهذا حسينا . فمنه سنبدا انطلاقة هذا القاص الشاب الحقيقية نحو تخوم اعمال اكثر اهمية واعقق دلالة وادق رسدا للوقائع ، ومعايشة - متفاعلة ، لها ومعها ..

لقد كانت « الوشم » البيان السياسي والنفسي لعبدالرحمن مجيد الربيعي ، وانها الخلاص من ذلك الاحباط الذي عانى منه ، وبعد ذلك سيفسفو مزاج القاص وفكره ، ويستقر على ارضية اكثر ثقة وصلابة وعطاء .. وهذا ما نتمنى ، ان الربيعي وجد نفسه .. وهذا حسينا .

بفسداد محمد الجزائري

« دار الآداب تقدم »

مؤلفات كولن ولسون

- | | | |
|----------------------------------|-----------------------------|-----|
| الشك | ترجمة يوسف شرور ووعمر مرق | ٥٠٠ |
| ضباع في سوهو | ترجمة يوسف شرور ووعمر مرق | ٤٠٠ |
| طقوس في الظلام | ترجمة فاروق محمد يوسف | ٧٥٠ |
| القصص الزجاجي | ترجمة سامي خشبة | ٦٠٠ |
| اللامنتمي | ترجمة أنيس زكي حسن | ٥٠٠ |
| مابعد اللامنتمي | ترجمة يوسف شرور ووسمير كتاب | ٤٥٠ |
| سقوط الحضارة | ترجمة أنيس زكي حسن | ٦٥٠ |
| رحلة نحو البداية | ترجمة سامي خشبة | ٩٠٠ |
| المقول واللامقول في الادب الحديث | | |
| ترجمة أنيس زكي حسن | | ٥٥٠ |
| اصول الدافع الجنسي | ترجمة شرور ووسمير كتاب | ٦٥٠ |

معينة وأميازا ، لكنه لم « يتعب » في صنعها ، مما ادى الى ان ينسحب ذلك على محمل الرواية وكأنه كتبها وهو مطارد بها ، محاصر بها ، ومطوق بموضوعها وكان ثمة نظاما ، شخصا ، ظروفنا سياسية واجتماعية ، تراهبه ابان الكتابة مع انه طرح هذه الشرائح الاجتماعية والوقائع بلا استرسالات واطنابات وصفية ، ولا تصوير دقيق لشخصوه بل اعطى اللمحة واللمسة ، وبذلك جرد عمله من كل فيض زائد يسيء ، لكنه مع ذلك اعطى « بداية » ، « نواة نظام » ، فنساء (الوشم) - مثلا - حاول ان يجعلهن يتميزن بصفات متغايرة ، لكنه في النتائج الاخير سقط في تشبيهن ولم تمتلئ احداهن بعناصرها وكانهن (يؤخرن - تطور - الرواية) كذلك بقية الشخصوص .

واذا كان عنصر الاغناء ينشق ولا ينشق عن جذر الرواية - القضية بمعنى ان الرواية لا تقشر عنصر اغنائها كقشر الجوز ، وتدعه يسقط فان ذلك الطعم الذي يتركه القشر مضافا الى الجذر شكلا ولونا يمنح المتأمل صورة ناضجة الابعاد تمتلك عصير زيتها وخطوطها وكثافة الوانها ..

لكن عدم توفر عنصر الاغناء - رغم التكثيف الجيد في الرواية - اضعف بنية العمل الفني ، فالشخصيات عموما متعبة فنيا وشاحبة .. اي متعسف على تصورنا الاضافي الذي خرج بعضها عن بعد ملامحها الواقعية .. وهذه الرقابة التي (اظن) ان الربيعي كان يمارسها ضد نفسه سياسيا واجتماعيا اسقطت شخصياته بهذا الشحوب والانطفاء ، فلو كتبت « الوشم » دون التفكير بأي صفت سياسي او اجتماعي قد يواجهه المؤلف لاغنتت اكثر ، ليس في عدد صفحاتها ، بل في شخصياتها ومدار الاحداث - اللاحداث ، فيها .

واذا كانت مواصفات الرواية - التي نريد - تتلخص كما يحددها (هـ . كولييه) في كتابه « الرواية حتى الثورة » في كونها : « تتعلق بالتوتر الذي تتحدد فيه الملاحظة الدقيقة وتصحيح او تعميق الواقعي بالتخييل » ، فان الربيعي استطاع لحد ما ان يخلق « التوتر » وان يلتقط « الملاحظة » ، ولكنه خلط بين الواقعي والتخييل بحيث طفى الثاني على الاول في فهم الواقع وتحرك الشخصيات ، بحيث حاول ان يقول لنا ان روايته - كلها - واقعية وفيها ما هو متخييل ، ضمنا ..

وهو هنا لم يفلح ، اذ ان البنية المتكاملة للعمل الروائي تأتي بدقة . قد يكون لتخييل المؤلف المواقف او تضخيمها ضرورة فنية ، لكنها - هنا في « الوشم - اساءت للمضمون . وكانت الانزلاقات الفكرية التي يطرحها كريم الناصري وغيره عبر سقوطهم السياسي ، قد اخلت بالواقع وشوخته ولكن ليس لدرجة « الخيانة » ، اي ان الاحباطات السياسية لا ترتدي بالضرورة قناع المهرج ، فربما يخرج المهرج لنا بوجهه الحقيقي المتعب والحزين ، فيؤثر بنا اكثر من القناع .. اذ شدنا اليه الى قضيته اكثر ، انذاك سيكون عمل المهرج ادوع بكثير من خبرة الففز على الحبال واللعب وسط الحلبة !

واذا امكن القول « ان احسن ما في الرواية ليس روايا » ، فان احسن ما في « الوشم » تجسيدها لبعض حالات السقوط السياسي والاحباط عبر واقع العسف ومسبباته .. وبذلك تكمن الادانة ، وان كانت غير مضاة كما يجب ، لواقع العسف .. مع انها لم تضيء ايضا واقع النضال اليومي الذي رافق العسف وتحدها .. ولكن حسنة « الوشم » انها طرحت هذا الواقع الذي تازمت فيه نفوس كئيبسة وفئات كثيرة ، وجرحه بموضع مرتجع ومحاصر ومراقب .

الى جانب هذا فقد نميزت لغة الوشم بعنوية والفة ، وبنثيث من الشاعرية ، يظهر هنا وهناك ، وبسلامة لغوية ، فكانت اللفسة مسهمة في تعميق كون « الوشم » رواية شريحة واقعية - متصورة ، مختزلة لحدث يمثلها بالدلالات السياسية والسيكولوجية والاجتماعية والسلوكية . وهي تشكل الحلقة الثامنة من عمل روائي اكبر ، تعتبر